الفصل الثالث
الحضارة
فريضة إسلامية

تمهيد :

هناك كثير من المفاهيم التى يرددها الناس منذ أزمان طويلة ويفهمها كل فريق منهم بفهم معين يقترب أو يبتعد بدرجات متفاوتة من فهم الآخرين مما يوحى بأن الناس يفتقدون اللغة المشتركة التى تقرب ما تباعد بينهم من أفهام، وإذا كان هذا أمر يحدث على مستوى الأمم والشعوب والحضارات المختلفة فإن الأمر يبدو غريباً إذا كان ذلك يحدث بين أبناء الأمة الواحدة، ومن بين المفاهيم التى تصادف هذا الأسلوب فى التعامل معها مفهوم الحضارة، ولأهمية التحديد الواضح للمفاهيم فإننا نود فى البداية أن نلقى بعض الضوء على مفهوم الحضارة قبل الدخول إلى لب الموضوع الذى يفصح عنه عنوان هذا الفصل، ومن هنا سنقسم موضوعنا إلى قسمين على النحو التالى:

أولاً: مفهوم الحضارة.

ثانياً: الإسلام والحضارة.

ويعد أول هذين القسمين بمثابة مدخل أساسى للقسم الثانى.

أولاً: مفهوم الحضارة :

إن المتتبع لمفهوم الحضارة (بكسر الحاء وفتحها) فى المعاجم العربية يجد أنه يعنى عكس البداوة، وهذا يعنى أسلوبا مختلفا فى التعامل مع الناس والأشياء، ونقلة فكرية أيضا نظراً لما بين مجتمع البداوة ومجتمع الحضر من فروق.

وقد أشار ول ديورانت أيضا فى كتابه قصة الحضارة[1]، إلى معنى قريب من ذلك حين يقول: إن الحضارة أو المدنية فى وجه من وجوهها هى رقة المعاملة، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن - وهم الذين صاغوا حكمة المدنية - من خصائص المدينة وحدها، ويضيف قائلاً: «إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا فى المدن».

ومن كل ذلك يتضح لنا أن مفهوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقدم، فالحضارة إذن نقلة تقدمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى: تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء. وهذا كله فى إطار منظومة من القيم تتعدى الإطار القبلى الضيق إلى الدائرة الإنسانية الأوسع والأرحب.

---

(١) انظر: قصة الحضارة: ول ديورانت - ج ١ ترجمة د. زكى نجيب محمود ص ٥ - القاهرة ١٩٧٣م

وقد كان للإسلام دور كبير فى تنبيه الأذهان إلى هـذه الدائـرة الجديدة مؤكداً على العنصر الإنسانى الشـامل: ﴿ **يأيـها النـاس إنـا خلقنـاكم مـن ذكـر وأنثـى وجعلنـاكم شـعوباً وقبـائل لتعارفوا** ﴾[1].

وهذا التعارف يقتضـى التفاهم والتعـاون المشـترك فـى سـبيل ترسيخ قيم إنسانية مشتركة ﴿ **من قتل نفساً بغير نفس أو فسـاد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنمـا أحيـا الناس جميعاً** ﴾[2].

وقد جعل ابن خلـدون الحضـارة غايـة العمـران وفـى الوقـت نفسه جعلها مؤذنة بفساد العمران وذلك لأنـه ربـط بينـها وبـين «التفنن فى الترف واستجادة أحوالـه، والكلـف بالصنـائع التـى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه. وإذا بلغ التأنق فى هـذه الأحـوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها»[3].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون – طبعة دار الشعب ص ٣٣٤ وما بعدها

الطبيعة المزدوجة للحضارة:

ولكننا لا نريد أن نتابع ابن خلدون فى فهمه لهذا الجانب من الحضارة، ولعل تعريف ألبرت اشفيتسر فى كتابه فلسفة الحضارة يكون أقرب إلى ما نحن فيه حيث يقول[1]: إن الحضارة بصورة عامة هى «التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء».

وهذا يتفق مع ما سبق أن أشرنا إليه من أن الحضارة تعد نقلة تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء.

وهذا يعنى أن الحضارة لها طبيعة مزدوجة، فهى من ناحية تحقق نفسها فى سيادة العقل على قوى الطبيعة، ومن ناحية أخرى فى سيادة العقل على نوازع الإنسان، وليس يكفى إطلاقاً أن يسود العقل على الطبيعة الخارجية، فهذه السيادة وإن كانت تمثل تقدماً إلا أنه تقدم تقترن فيه المزايا بالمساوئ التى يمكن أن تعمل فى اتجاه مضاد للحضارة أو مؤذن بفسادها كما رأينا لدى ابن خلدون.

---

(١) انظر فلسفة الحضارة لألبرت اشفيتسر - ترجمة د عبد الرحمن بدوى ص ٣٤ (دار الأندلس - ١٩٨٠م)

وليس هناك من شك فى أن هناك عوامل كثيرة تشترك معا فى تكوين الحضارة، ويشير ول ديورانت فى هذا الصدد إلى عوامل جيولوجية وجغرافية واقتصادية ونفسية[1].

ويفسر توينبى[2] الحضارة بأنها رد معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس فى مواجهة تحد معين، وهذا التحدى الذى تمثله الطبيعة يختلف فى مستواه، وبالتالى تختلف فعالية الرد عليه من جانب الشعوب بين احتمالات ثلاث: فإما أن تقوم الشعوب المعنية بوثبة إلى الأمام، وإما أن تصاب بالتوقف والجمود، وإما أن يلفها الفناء بردائه.

الحضارة وقضية الإنسان:

وقد لجأ مالك بن نبى فى تعريفه للحضارة إلى معادلة رياضية تقول: إن الحضارة = إنسان + تراب + وقت

وبذلك فإن المشكلة الحضارية تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية هى: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب[3]. ومشكلة الوقت، وتقوم الفكرة الدينية بعملية المزج بين هذه العناصر الثلاثة[4].

---

(١) انظر قصة الحضارة ج ١ ص ٣ – ٦.

(٢) راجع: شروط النهضة لمالك بن نبى ص ٩٦ ومابعدها – دار الفكر ١٩٧٩م

(٣) يفضل مالك بن نبى استخدام لفظ التراب بدلا من لفظ المادة

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها.

ولمالك بن نبى تحليلات طيبة ونظرات ثاقبة فى هذا الصدد، ولسنا هنا نريد أن نكرر ما قاله، ولكننا نود أن نشير إلى أن المشكلة الحضارية الرئيسية فى نظرنا هى مشكلة الإنسان، فالإنسان هو العنصر الفاعل الإيجابى فى العملية الحضارية كلها، وماعداه مسخر لخدمته ومجال لنشاطه.

وإذا قلنا إن الإنسان هو كل شىء فنحن نعنى ما نقول تماماً، وهذا يقتضينا أن نحدد ما نعنيه بمفهوم الإنسان، وإن كان ذلك ربما يعد من أظهر الأمور، ولكن ظهور الشىء ظهورا فائقا قد يكون سبب الخفاء.

فالإنسان هو الكائن الوحيد فى هذا الكون الذى وصفه الفلاسفة والمفكرون كل فى مجال تخصصه بأنه كائن عاقل، أو كائن اجتماعى، أو حيوان متدين، أو حيوان أخلاقى، بمعنى أن كل صفة من هذه الصفات لا توجد فى كائن آخر فى هذا الوجود غير الإنسان، فالإنسان وحده هو الذى ينفرد بها.

ولكن هذه الصفات ليست هى كل شىء فى الإنسان، فهناك صفات أخرى فريدة يختص بها وهى: التقنية والتراث والتقدم.

وتتمثل التقنية أساساً فى صنع الإنسان لآلات معينة واستخدامها لغرض معين، فإنتاج الآلات المعقدة المحددة الأهداف عن طريق عمل طويل وشاق هو عمل إنسانى خالص.

ولكن هذه التقنية التى يختص بها الإنسان كان من الممكن ألا تتطور إذا لم يكن الإنسان فى الوقت نفسه كائناً اجتماعياً ينمو فى المجتمع عن طريق التراث، وهذا التراث ليس أمراً فطرياً فيه، ولكنه يتعلمه، وذلك بفضل اللغة المعقدة التى يمتلكها، وبفضل ذلك كله يتقدم الإنسان. فهو يتعلم، ويضيف إلى ما تعلمه لجديد عن طريق قدرته على الإبداع والاختراع.

وفضلاً عن ذلك فإن تفكير الإنسان ليس دائماً مرتبطاً بغرض مادى عملى، فهناك مجالات لا تخضع لهذا الغرض تشغل اهتمام الإنسان، فتطلعه الدائم لاكتساب المعارف واكتشاف المجهول لا يقف عند حد[1].

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن مشكلة الإنسان تتفرع إلى جوانب عديدة تتكامل فيما بينها ولا تتناقض، ويمكن إجمالها فى العناصر التالية:

العقل بكل ما يحمل هذا المصطلح من معنى وبما له من قدرة على الإبداع، والتدين، والتعلم، والأخلاق، والنزعة إلى الاجتماع، وهذه النزعة تشمل ما يترتب عليها من النظام الذى يحفظ المجتمع ويتمثل فى القوانين، واللغة والتراث والتقنية والتقدم.

---

(١) انظر: مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكى ومن ترجمتنا ص ٩١ وما بعدها- - دار الفكر العربى ١٩٩٦م.

والإبداع الحضارى فى هذا كله يتمثل بصفة عامة فى الفلسفة والعلم بجميع فروعه والتقنية والفن انطلاقاً من قاعدة أساسية هى الدين. والمتتبع لتاريخ الحضارات السابقة وما تركت لنا من آثار لاتزال قائمة يستطيع أن يتعرف بسهولة على ما كان للفكرة الدينية فى هذه الحضارات من دور كبير وأثر عظيم.

وهكذا نجد أن مركز الدائرة الحضارية هو الإنسان، وأهم خصائصه العقل. والعقل يعنى الكرامة الإنسانية واستقلال الشخصية، ويعنى المسئولية، ويعنى الحرية.

وإذا كانت الحرية ضرورية للتحضر – فإنها تصبح عديمة المعنى إذا لم تتوفر للإنسان وسائل العيش من القوت والكساء والمأوى، وإذا لم يتوفر له الأمن على نفسه وماله وعرضه وعقيدته. وفى هذه الحرية تكمن كرامته الفريدة وفرصته فى تحقيق وجود إنسانى يليق بكرامة الإنسان.

الحضارة والميراث الحضارى

ومما لاشك فيه أن الحضارة تعد امتيازاً للإنسان – فالإنسان وحده صانع الحضارة – ولكن الحضارة ليست ببساطة شيئا موروثا أو مجبولا فى فطرة الإنسان، وإنما هى شىء لابد أن

يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتسابا جديداً، والتربية هى الوسيلة التى تنتقل بها الحضارة من جيل إلى جيل[1].

ولكن الأمر لا يجوز له أن يقف عند حد الامتلاك المتجدد للحضارة. فنحن مثلا وارثو حضارة فرعونية قديمة ووارثو حضارة عربية إسلامية ولكن ما قيمة ذلك إذا وقفنا بعقارب الزمن ولم نبذل أى جهد يضيف جديداً إلى ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا.

ورحم الله جمال الدين الأفغانى: فقد زاره شكيب أرسلان ذات مرة وحكى له ما يروى من أن العرب قد عبروا المحيط قديماً واكتشفوا القارة الأمريكية قبل الأوروبيين، فرد الأفغانى قائلاً: «إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»[2]

الحضارة والالتزام الأخلاقى

ولكن مجرد الإضافة المادية إلى الموروث الحضارى لا تكفى. فالحضارة قبل كل ذلك وبعده هى التزام أخلاقى. وهذا يعنى

---

(١) انظر. قصة الحضارة ج ١ ص ٨.

(٢) انظر: زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١١٠ - القاهرة ١٩٧١م.

أنها ليست مجرد حضارة إنتاج أو استهلاك، فهذه لا تستحق أن يطلق عليها لفظ حضارة. فلا يكفى أن يقتنى المرء الحضارة مجرد اقتناء دون أن يكون ملتزما أخلاقيا بمنظومة القيم الحضارية والسلوك الحضارى. ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة ولكنه لا يسلك سلوكا حضارياً. ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر رغم الأكوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة.

وإذا قلنا إن الحضارة فى جوهرها تعد التزاماً أخلاقياً فإننا نعنى بذلك أن الحضارة مسئولية. فهى التزام أخلاقى يجعل المرء على وعى بالمسئولية الكبيرة التى يتحملها الانسان الفرد، ليس فقط تحمله المسئولية عن أفعاله الخاصة وإنما بمعنى معين تحمله المسئولية عن العالم الذى يعيش فيه. فكلنا نعيش فوق كوكب أرضى واحد أصبح مثل سفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب. ونحن جميعاً - سكان هذا الكوكب - مسئولون بدرجات متفاوتة عما أصاب هذا الكوكب الأرضى من تلوث فى الماء والهواء والغذاء وما أصاب طبقة الأوزون من تآكل ينذر بخطر داهم يهدد البشرية كلها. وهذا الفهم الجديد الذى يضع عنصر المسئولية فى مقدمة العناصر الأساسية التى تشكل ظاهرة الحضارة هو الذى أدى - على سبيل المثال - إلى انعقاد مؤتمر

الأمم المتحدة للبيئة والتنمية أو ما أطلق عليه اسم «قمة الأرض» فى النصف الأول من شهر يونية عام ١٩٩٢م فى ريو دى جانيرو لمناقشة المشاكل البيئية العديدة التى تهدد الحياة والأحياء على الأرض فى محاولة لانقاذ البشرية من الأخطار والكوارث التى لا يعلم مداها إلا الله، تلك المشاكل التى نتجت عن التقدم التقنى المنفلت الزمام، وما تسببه النفايات الذرية ونفايات المصانع من تلويث للهواء والماء والغذاء. فهذا المؤتمر المشار إليه يعد تعبيراً عن المسئولية الحضارية المشتركة التى أصبح سكان الأرض جميعاً مطالبون بتحمل أعبائها.

وهذه المسئولية تعنى أن الحضارة الحقيقية تضع الإنسان – الذى هو نفسه صانع الحضارة – فى قمة اهتماماتها. وإذا قلنا الإنسان فإن ذلك يعنى الإنسان بكل ما يعبر عنه ذلك من معنى:

الإنسان فى شتى جوانب اهتماماته المادية والعقلية والروحية. ومن هنا فإنه لا يجوز اختزال الحضارة فى إرضاء الاهتمامات المادية فقط أو الروحية فقط أو العقلية فقط، بل لابد أن يكون هناك توازن بين كل هذه الاهتمامات والمتطلبات، فالأزمة الحضارية الراهنة فى العالم ترجع فى رأى كثير من المفكرين إلى أن قدرة الإنسان المعاصر على تشكيل ذاته على المستوى الفردى

والجماعى قد تراجعت تراجعاً حاداً خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلاً مادياً.

ومن هنا يعد السعى من أجل سيادة السلوك الأخلاقى فى مقابل الحضارة الشيئية البحتة مسئولية يشترك فى تحملها كل فرد. فقد ألقت المقادير فى يد الحرية الإنسانية مصير هذا النزاع القديم المتواصل حول سيادة العقل.

ولا يجوز أن يغيب عنا أن هدف الحضارة هو الإنسان قبل أى شىء آخر. وفى تأكيدنا على معنى الإنسان وكرامته وحريته لا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الحضارة – أى حضارة – تنتهى عندما تفقد فى شعورها معنى الإنسان.

وهناك ارتباط لا ينفصل بين الأخلاق والإنسانية: **فالأخلاق** تذهب إلى المدى الذى تذهب إليه الإنسانية، **والإنسانية** معناها توفير الاعتبار لوجود أفراد الإنسانية وسعادتهم، وحيث تنتهى الإنسانية تبدأ الأخلاق الزائفة والحضارة الزائفة.

وإذا كان توماس هوبز قد ذهب فى تصوره إلى حد رؤية الإنسان ذئباً بالنسبة لأخيه الإنسان وأن الكل فى حرب ضد الكل فإن التصور الذى يتلاءم مع الحضارة الحقيقية أو الذى يعبر عن لب هذه الحضارة والذى ينبغى أن يصل إلى وعى الأفراد والجماعات هو «مسئولية الكل عن الكل».

والإنسان لا يمكن أن يكون مسئولاً إلا إذا كان حراً، ومقدرته على أن يكون رائداً للتقدم بمعنى أن يفهم ماهية الحضارة وأن يعمل بها تتوقف على كونه مفكراً وعلى كونه حراً. إذ ينبغي أن يكون مفكراً ليكون قادراً على فهم مثله وتصويرها وينبغي أن يكون حراً ليكون فى وضع يتهيأ له منه أن يدفع بمثله فى الحياة العامة[1].

ولا يمكن – فى حقيقة الأمر – فصل حريتى كفرد عن حرية الآخرين، لأن الحرية لا يدركها المرء إدراكاً حقيقياً إلا بممارستها عن طريق علاقته بالآخرين. فالعلاقة بين الأشخاص هى وحدها التى تجعل الحرية أمراً ممكناً.

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك ونؤكد أن الإنسان لا يمكن أن يعيش ويتمتع بنعمة الحياة ذاتها إلا فى ظل علاقة إنسانية. وقد أثبتت ذلك بعض البحوث العلمية التى أجراها فريق من العلماء الأمريكيين. فقد تضمنت التجربة التى قام بها هؤلاء العلماء عزل خمسة من الأطفال حديثى الولادة فى حجرة واسعة معقمة تعقيماً ممتازاً. ومجهزة بأحدث الوسائل الصحية، وخصص لكل طفل فراش صغير أنيق فى غاية النظافة، فإذا حان موعد الطعام

---

(١) انظر: فلسفة الحضارة ص ٢٠ وما بعدها.

دخلت المرضة فألقمت كل طفل زجاجة لبن تتوفر فيه كل شروط الغذاء الصحى.

ولكن المرضة – حسب التعليمات المشددة من جانب الأطباء العلماء أصحاب التجربة – لم يسمح لها بلمس الطفل أو حمله بين ذراعيها وهدهدته أو تدليله أو مضاحكته أو مداعبته بكلمة أو قبلة. فكان تعاملها مع هؤلاء الأطفال تعاملاً آليا كما لو كانت تتعامل مع آلة من الآلات، لا مع شخص بشرى.

وكانت نتيجة هذه التجربة اللاإنسانية هى موت الأطفال الخمسة رغم العناية الصحية الفائقة. وكان سبب موت الأطفال – كما شخصه العلماء – هو الحرمان من هذه العلاقة الإنسانية، الحرمان من الحنان الأمومى أو من التدليل والهدهدة والمداعبة والقبلات. فهذا كله يمثل بالنسبة للطفل إكسير الحياة. والعلاقة الإنسانية هى التى تضمن له كل ذلك[1].

والمسئولية التامة تستند دائما بالضرورة إلى العلاقة الإنسانية الأساسية المطلقة التى تتمثل فى المحبة والأخوة والعدالة والتراحم والتسامح بين بنى الإنسان.

والحضارة الحقيقية من شأنها أن تجعل روح التسامح تسرى بين الناس وفى ظل هذا التسامح تتاح للمرء حرية التفكير.

---

(١) راجع صحيفة الأخبار القاهرية فى ١٤/٧/١٩٨٠م ص ١٤.

وقد يفكر المرء فى اتجاه خاطئ، ولكن لفت نظره إلى الاتجاه الصحيح لايكون عن طريق الإرغام أو القهر، وإنما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة. وفى ظل هذه الحضارة ينتفى التعصب الأعمى ويختفى العنف الجهول والإرهاب الفكرى.

وهذا التسامح المشار إليه يمكن أن يكون من جانب آخر بمثابة مدخل للالتقاء بالحضارات الأخرى والانفتاح عليها وإقامة حوار معها، وهذا يعنى فتح المجال أمام التعددية الحضارية.

الأبعاد الأساسية للحضارة:

وفى نهاية حديثنا عن مفهوم الحضارة يمكننا أن نوجز فى عبارات قصيرة أهم الأبعاد التى ينبغى أن تتوفر فى أى مشروع حضارى حقيقى وذلك على النحو التالى:

١ - **البعد الإنسانى:** ونعنى بذلك فهما مزدوجا على المستوى الفردى وعلى المستوى العام: على المستوى الفردى من حيث ضرورة المحافظة على كرامة الإنسان وحريته كفرد ومراعاة اهتماماته المادية والعقلية والروحية، وما يمثله ذلك من احترام عقله وفكره وعقيدته حتى يكون قادرا على الإبداع فى مجالات العلم والفلسفة والدين والفن. أما على المستوى العام فنعنى بذلك مراعاة الاعتبار الإنسانى بالنظر إلى الإنسان أينما

كان وأنى كان من حيث هو إنسان بالمعنى الذى يحقق قيمة الإنسانية فى العلاقات بين أبناء البشر من شتى الحضارات والأديان والأجناس.

٢ – **البعد الأخلاقى:** بمعنى الالتزام بمنظومة القيم الأخلاقية التى تعنى سيادة العقل على نوازع الإنسان وما يرتبط بذلك من التزام أخلاقى مسئول بأوسع معانى الالتزام والمسئولية.

٣ – **البعد التقدمى:** بمعنى دفع عجلة التقدم فى مجالات العلم والفكر والسلوك وفى أسلوب التعامل بين الناس. فالحضارة كما سبق أن أشرنا ليست مجرد ميراث يرثه الإنسان وليست مجبولة فى فطرته، ومن هنا ينبغى أن يكتسبها المرء من جديد ويسهم بنصيبه فى الإضافة إليها والإبداع الذى يغذيها ويدفع بها إلى الأمام.

٤ – **البعد الدينى:** فالدين عنصر فعال فى كل حضارة لا يجوز تجاهله. وتاريخ الحضارة فى السابق وحتى الآن يبرهن على ذلك.

٥ – **البعد الزمنى:** بمعنى مراعاة مفهوم الزمن من حيث هو حلقات متصلة غير منقطعة. وهذا يعنى التواصل الحضارى والحفاظ على كل ما هو جوهرى فى ذاتية الأمة. وفى الوقت

نفسه عدم تجاهل التطورات المستجدة فى الحاضر مع استشراف المستقبل.

٦ – **البعد التوازنى**: بمعنى ضرورة التوازن بين متطلبات الإنسان العقلية والمادية والوجدانية. فالحضارة أحادية الجانب أو التى يختل فيها التوازن تحكم على نفسها بالفناء.

٧ – **البعد العالمى**: بمعنى مراعاة المتغيرات الدولية وإدراك واقع التعددية الحضارية والتمايز الحضارى فى العالم الذى لا يعنى بالضرورة التناقض أو التضاد. ومن جانب آخر الانفتاح على كل الحضارات والحوار معها فى سبيل خير الإنسانية وترسيخ أسس السلام والعدل والاستقرار فى العالم.

وغنى عن البيان أن كل هذه الأبعاد التى ينبغى أن تتوفر فى أى مشروع حضارى حقيقى متوفرة جميعها فى تعاليم الإسلام. فالإسلام قد كرم الإنسان وفتح أمامه المجال للانطلاق بلا حدود فى آفاق العلم والمعرفة من أجل إعمار الأرض ودفع عجلة التقدم فى المجتمع البشرى، وأمرنا أن نسير فى الأرض وندرس ما كان من أخبار السابقين ونستفيد من كل الخبرات البشرية. فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها.

وتعاليم الإسلام تحرص على تأكيد مبدأ الوسطية وإقامة التوازن بين متطلبات الإنسان المادية والعقلية والوجدانية،

وفضلا عن ذلك فإن الإسلام يعد دين الإنسانية ﴿ **من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾[1].

وكل هذه الأبعاد محوطة فى الإسلام بسياج من القيم الأخلاقية الرفيعة، ومن هنا لخص محمد صلى الله عليه وسلم رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2].

ومن كل ذلك يتضح أن الحضارة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى تعد فريضة إسلامية وواجباً دينياً وعنصراً أساسياً من عناصر دين الإسلام. وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل نبينه فى القسم الثانى من هذا الموضوع.

ثانيا: الإسلام والحضارة:

قبل الدخول فى تفاصيل هذه القضية يجدر بنا أولا أن نلقى نظرة على الوضع الراهن فى العالم الإسلامى ومحاولات الربط بين الإسلام كدين وقضية التخلف التى تسود العالم الإسلامى منذ فترة طويلة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد.

١ – تمهيد:

يعانى العالم الإسلامى فى العصر الحاضر من أزمة طاحنة متعددة الجوانب، ففى الوقت الذى تتلاحق فيه التطورات العلمية والفكرية والحضارية فى مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده المادية والمعنوية، العلمية والدينية، الفكرية والحضارية يخيم على العالم الإسلامى.

وقد حدا ذلك ببعض خصوم الإسلام فى الغرب إلى إلصاق هذا التخلف بالإسلام نفسه، إذ هو فى زعمهم دين يشد أتباعه إلى التخلف حيث يشكل عائقاً أمام التقدم العلمى والتطور الحضارى، وذلك بما يشتمل عليه من تعاليم جامدة، وتشريعات صارمة، تحد من الانطلاق فى مجالات التمدن والحضارة والرقى والتقدم.

ويستدل خصوم الإسلام على مقولتهم هذه بالواقع المشاهد فى العالم الإسلامى، فهذا العالم الإسلامى كله يقع اليوم فى صف دول العالَم الثالث المتخلف، فإذا كان الإسلام دين حضارة وتقدم لما وجدنا هذا الوضع المتخلف فى عالم الإسلام، وهكذا يرجع هذا التخلف إذن إلى الإسلام ذاته.

ومن هنا فإن المسلمين إذا أرادوا أن يتحرروا من أسر هذا التخلف فإن عليهم أن يتحرروا من الجمود الإسلامى، وأن

يأخذوا بالنموذج الغربى الذى دفع بالغرب إلى قمة التقدم والحضارة.

ويبدى - فى هذا الصدد - أحد المستشرقين المبشرين نصيحة للمسلمين لدفعهم إلى النهوض من وهدتهم بقوله: «إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه، أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة»[1].

فهذا الدين الذى ظهر فى الصحراء لم يعد يستطيع مسايرة الحياة المعاصرة، ومن هنا فلابد من طرح ما فيه من جمود حتى يمكن للمسلمين اللحاق بركب العصر.

وقد سار خلف هذا الزعم الباطل نفر من أبناء الأمة الإسلامية التابعين للغرب فى فكرهم تبعية ذليلة من منطلق مركب النقص والشعور بالدونية إزاء الغرب المتفوق، وكأن الإسلام لم يقدم للإنسانية أى إسهام فى مجالات الفكر والعلم والحضارة.

وليس من غرضنا هنا أن نشغل أنفسنا بالرد على هذه المزاعم، فالاشتغال بذلك يعد لوناً من ألوان ردود الأفعال التى لم يعد يجدر بنا أن نقف عندها طويلاً، بل ينبغى علينا أن نقتحم

---

(١) راجع: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ٦١٢ - دار الفكر - بيروت ١٩٧٣م.

المشكلات المحيطة بنا بأسلوب عقلانى بعيد عن الانفعالات العاطفية، بصرف النظر عما يقال هنا أو هناك، من أجل البحث عن حلول سليمة لمشكلاتنا المصيرية، وعلى رأسها قضية التخلف الحضارى الشامل الذى لا يخفى على أحد، وذلك على الرغم من وجود قشرة حضارية يلمحها المرء هنا أو هناك.

إننا كمسلمين لا نستطيع أن ننكر أن واقع الأمة الإسلامية واقع متخلف ومحزن ويدمى النفس الإنسانية، ولكن لا نستطيع أن ننكر فى الوقت نفسه أن هذا الواقع المحزن منفصل عن النموذج الإسلامى بمائة وثمانين درجة، ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جدية من هذه القضية المصيرية الأولى. بل ظلت حتى يومنا هذا مشغولة بمحيط الدائرة، وببعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات، واختلط لديها سلم الأولويات، فانقلبت لضروريات هامشيات والهامشيات ضروريات، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعقلة المستنيرة، وضاعت أصوات المتعقلين من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التى تتصف فى بعض الأحيان بشدة حدتها، وانفلات وعيها بما يدور حولها فى عالم اليوم.

فما هى الأسباب الكامنة وراء هذه الأزمة الطاحنة المتمثلة فى هذا التخلف الحضارى الشامل فى العالم الإسلامى؟ وما مدى

مسئولية الإسلام والمسلمين عنها؟ وما الذى يمكن أن يسهم به الإسلام فى صنع الحضارة والتقدم الإنسانى؟ وهل يمكن أن تدخل الحضارة فى دائرة الواجبات الإسلامية الضرورية التى يمكن أن توصف بأنها فريضة إسلامية؟.

٢ – الحضارة فريضة إسلامية:

لقد عرضنا فى القسم الأول من هذا الفصل بإيجاز شديد للملامح الأساسية التى تمثل الشروط الضرورية لقيام حضارة من الحضارات، أو التى ينبغى أن تقوم عليها الحضارة بصفة عامة، وعلينا الآن أن نتجه نحو الإسلام لنرى ما إذا كان يشتمل على هذه الشروط الضرورية أم لا؟

ولعل هناك من يعترض علينا فى هذا الصدد على اعتبار أن هذا البحث ربما يفهم منه افتراض أن الإسلام لم يصنع حتى الآن حضارة، وهذا أمر مخالف للواقع. فالإسلام قد أقام حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ، وقد امتدت من أقصى الصين شرقاً إلى أقصى الأندلس غرباً، وهذا يعنى أن الإسلام فيه كل المقومات الأساسية لبناء الحضارة.

وهذا اعتراض له وجاهته، ولكننا لا نبحث الآن تاريخاً مضى وانقضى، ولكننا نبحث فى مشكلة واقعية نعيشها، ولابد من مواجهة الأمر الواقع لنرى ما إذا كانت المشكلات الحضارية

بمعطياتها المعاصرة تجد لها فى الإسلام حلـولا أم لا وذلـك مـن منطلق أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان.

ومن هنا فإن مـن الأهميـة البالغـة تبيـان هـذا الأمـر بمنتـهى الوضوح حتى لا يتطرق هناك لبس أو يتسرب شك إلى عقل المسلم فى مدى صلاحيـة إسـلامه للبنـاء الحضـارى الإنسـانى فـى أى وقت وفى أى مكان.

ونحـن نزعـم فـى هـذا الصـدد أن الحضـارة بالمفـهوم الـذى ارتضيناه تعد فريضة إسلامية لا تقل أهمية عن أية فريضة أخرى فى الإسلام، وأن الخروج من هذه الوهدة التى تردت فيها الأمـة الإسلامية يعد واجباً دينيـاً لا يجـوز للمسـلمين أن يتـهاونوا فـى شأنه بأى حال من الأحوال.

ولعلنا بهذا المصطلح نثير مشكلة فقهية حول مصطلح الفريضة فى الإسلام. ولكننا لا نريد أن نضيـع وقتـاً فـى هـذه المناقشـات اللفظية فسيتضح لنا من خـلال مـا سـنعرضه هنـا أن اسـتخدامنا لهذا المصطلح استخدام سليم، فإن استعادة العزة التى كتبها الله للمؤمنين والتمكين لهم فى الأرض مـن الأمـور التـى لا تقـل فـى أهميتها عن فريضة الصـلاة والصيـام، بـل إن هـذه العـزة وهـذا التمكين يمثلان الضمان لإقامة فرائض الإسلام كلها، وصـدق الله

العظيم القائل ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾[1].

ويكفى أن نشير هنا فى البداية إلى القاعدة الأصولية المعروفة التى تقول: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(أ) الإنسان محور اهتمام القرآن:

وإذا كان الإنسان بصفة عامة هو العنصر الفاعل الإيجابى فى العملية الحضارية كلها فإن هذا يقتضينا أن نبحث موقف الإسلام من الإنسان لنتعرف على مكان الإنسان ومكانته فى تعاليم الإسلام. ومن خلال ذلك نستطيع أن نتعرف على موقف الإسلام من الحضارة.

إننا إذا تأملنا فى القرآن الكريم وهو فى حقيقته كتاب جاء لنتدبر معانيه ونتأمل فيها وصولا إلى معرفة الحق الذى لا مراء فيه، وإلا حق علينا قول القرآن نفسه: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[2].

نقول إذا تأملنا فى القرآن الكريم فسيتضح لنا أن الإنسان هو محور اهتمام القرآن، فالقرآن الكريم كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان.

---

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

(٢) سورة محمد: الآية ٢٤.

وقد تكررت كلمة الإنسان فى القرآن ثلاثاً وستين مرة، وجاء الحديث بلفظ بنى آدم ست مرات، وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة.

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحى القرآنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيتضح لنا التركيز على العناية بشأن الإنسان بصفة خاصة، ويتجلى ذلك بوضوح من ذكر لفظ الإنسان مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى. مع التركيز أيضاً على العلم وأدواته **﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾**[1].

ولا غرابة فى ذلك، فالإنسان قد جعله الله خليفة فى الأرض، وكرمه وفضله على سائر المخلوقات، وميزه بالعقل والإدراك، وحمله أمانة عمارة الأرض، وصنع الحضارة فيها.

إن مسئولية الإنسان الكبرى التى ارتضى أن يتحمل أعباءها بعد أن أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال – هذه المسئولية تعد تكريماً للإنسان، لأن تحمل المسئولية يعنى الحرية، ويعنى استقلال لشخصية. وتتركز هذه المسئولية

---

(١) سورة العلق الآيات ١ – ٥ (راجع: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ٦١ مكتبة وهبة ١٩٧٧م).

الكبرى – التى تتمثل فى الخلافة فى الأرض لعمارتها – على مسئولية الإنسان عن نفسه. ومن هنا فعليه نحو نفسه كفرد واجبات لا يجوز أن يفرط فيها، وهذه الواجبات تتمثل فى استخدام كل ما وهبه الله له من قوى وطاقات فيما خلقت من أجله، فالعقل وظيفته التفكير والفهم والإدراك، والحواس وظيفتها إدراكية فى مجالاتها، ووقت الإنسان ثمين لابد أن يقدر قيمته، ويشغله فيما يفيد، وصحته لا يجوز له أن يفسدها أو يهمل فيها، وإلا لن يكون قادراً على تحمل مسئولياته نحو نفسه ونحو الآخرين، وعلمه لابد أن يحسن استخدامه ويؤدى حقه، فطلب العلم إذا كان فريضة على كل مسلم ومسلمة كما قرر رسول الإسلام – صلى الله عليه وسلم – فإنه من ناحية أخرى مسئولية سيحاسب الإنسان عما فعل بها يوم القيامة، كما سيسأل أيضاً عن ماله كسباً وإنفاقاً، وفى ذلك كله يقول النبى عليه الصلاة والسلام:

«لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»[1].

---

(١) رواه الترمذى.

وفضلا عن ذلك فالإنسان مسئول عن استخدامه أو عدم استخدامه لوسائل الإدراك العقلية والحسية، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[1].

ومن هنا سيقول الكافرون يوم القيامة: ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم** ﴾[2].

وهذا يبين لنا أن عدم استخدام وسائل الإدراك من عقل، وحوس فيما خلقت من أجله يعد ذنباً من الذنوب، وينزل بالإنسان من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية بل إلى أسفل منها. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾[3].

وليس هناك دين من الأديان رفع من شأن العقل، وأعلى من قدره مثلما صنع القرآن. وقد حرص الإسلام على إزالة كل

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦

(٢) سورة الملك الآيتان ١٠، ١١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

العوائق التي تعترض سبيل العقل البشرى حتى يستطيع ممارسة دوره كاملاً فى هذا الوجود، ومن هنا رفض الإسلام التبعية الفكرية والتقليد الأعمى، ولم يرتض رسول الإسلام – صلى الله عليه وسلم – أن يكون المسلمون إمعات يسيرون وراء كل ناعق، بل عليهم أن يحكموا عقولهم ويميزوا بين ما يضرهم وما ينفعهم، فلا حُجِّية لأحد فى الإسلام بعد كتاب الله وسنة رسوله، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد ما عدا صاحب الشريعة. وكذلك حرر الإسلام العقل من الخرافات والأوهام والشعوذات، وجعل المسئولية فردية فى أساسها فليست هناك خطيئة موروثة، وهذه المسئولية الفردية لا تقوم إلا على أساس من حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله وماله. وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية التى قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا، وهذه المقاصد الضرورية هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال[1].

وغرس الإسلام فى نفس المؤمن العزة وقرنها بعزة الله وعزة رسوله ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[2]. وقرر الإسلام

---

(١) راجع الموافقات للشاطبى ج ٢ ص ١٠ – دار المعرفة – بيروت.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٨.

ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخـالق، وأن المؤمـن لا يخشـى فـى الحق لومة لائم، وبذلك صان الإسلام كرامة الإنسان.

وأكد القرآن الكريم الكرامة الإنسانية فى قوله تعـالى: **﴿ ولقد كرمنـا بنـى آدم وحملنـاهم فـى البـر والبحـر ورزقنـاهم مـن الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾**[1].

وعقيدة التوحيد وعقيدة ختم النبوة فى الإسـلام تعنيـان أيضـاً رفع الوصاية عن العقل البشرى. وبذلك ينفتح المجال أمام العقل ليمارس وظيفته دون عوائق.

وقد كان مبدأ الاجتهاد فى الإسلام من المبـادئ التـى فتحـت الباب أمام العقل ليصـول ويجـول فـى مجـال اسـتنباط الأحكـام الشرعية، وإذا كان الإسلام قد أجاز للعقل هذا الحق فى مجـال الأحكام الشرعية فمن باب أولى يكون ذلك أمراً حتمياً فى مجال الأمور الدنيوية، والاجتهاد فى حقيقته دعوة إلى الإبداع فى كـل مجالات العلوم والفنون والصنائع.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠ . يلحظ القارئ الكريم أن بعض ما ورد فى الصفحات السابقة من إشارات إلى العقل الإنسانى قد سبقت الإشـارة إليـه فـى الفصـل السـابق. ويرجع السبب فى هذا التكرار إلى أن فصـول هـذا الكتـاب قـد كتبـت فـى مناسـبات مختلفة وفى أوقات متباعدة. ولم نشأ أن نحذف منها شيئاً.

(ب) مجالات النشاط الإنسانى:

وهكذا يتضح لنا أن الإسلام قد هيأ المجال الملائم أمام الإنسان لاستخدام كل طاقاته الإبداعية، ووفر له كل الشروط الضرورية التى تساعده على القيام بمهمته الكبرى المتمثلة فى خلافته لله فى الأرض، والنهوض بمسئوليته فى عمارة الأرض، وجعل الله الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما مجالا لنشاط الإنسان، فكل ما عدا الإنسان فى هذا الكون مسخر لخدمة هذا الإنسان ومجال لنشاط الإنسان، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: **﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[1]، كما يقول أيضا: **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[2].

وقد حدد الحق تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية فى هذا الكون بقوله **﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾**[3]. وهذا يعنى أن الله قد فوض إلى الإنسان عمارة الأرض، والعمارة نقيض الخراب، وتعنى تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٣) سورة هود: الآية ٦١.

صالحة للانتفاع بها وبخيراتها. والاستعمار فى الآية الكريمة هو طلب العمارة. فالإنسان مطلوب منه – طبقا للمشيئة الإلهية – أن يجعل الأرض عامرة تصلح للانتفاع بها، وأن يبحث عن أفضل السبل لتيسير الحياة فيها، وكشف ما فى الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات من أجل خير البشرية جمعاء.

وقد أعطى الله الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التى تحكم الأرض وتحكم الكون كله والقوانين التى تحكم الإنسان، وما حباه الله به من قوى وطاقات، حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون[1].

وعمارة الأرض تتحقق بالعلم الذى هو فريضة إسلامية، وبالتقنية التى هى تطبيق للعلم، ومن أجل ذلك تدخل تحت مفهوم الفريضة. ولكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هى الحضارة بإطلاق. وكذلك ليست هى العمارة بإطلاق، بل هى أحد جوانب العمارة، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية. أما الجانب الآخر الذى به تكتمل

---

(١) راجع: فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ١ ص ٥٦ – دار الشروق.

لحضارة – أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى – فإنه يشمل كل لقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية.

ومن هنا فإن الحضارة فى المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق لمشيئة الإلهية فى عمارة الأرض ماديا ومعنوياً. وبذلك يحقق لإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض.

وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفى بحدها لبناء الحضارة. بل لابد أن ينضم إلى ذلك أيضاً سيطرة لإنسان على نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله. وبذلك يكون الإنسان فى صلة مستمرة بالله خالق الكون تصحح له دائماً مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق. فيظن أنه سيد هذا الكون مع أن دوره لا يعدو أن يكون سيداً فى هذا الكون. وهذا هو معنى خلافته لله فى الأرض.

(جـ) القيم الحضارية المنسية:

مما تقدم يتضح لنا أن الإسلام بما يشتمل عليه من تعاليم قد هيأ السبيل أمام المسلمين لعمارة الأرض، أو بناء الحضارة على أفضل الوجوه، غير أننا فى صلتنا بالإسلام قد ضيقنا رحمة الله

الواسعة، وحصرنا الإسلام فى مجموعة الشعائر المعروفة فاختفت من حياتنا - أو كادت - مجموعة القيم الحضارية المشرقة، وأصبحت فى واقعنا الإسلامى قيماً منسية، لا أثر لها فى حياتنا ولا تأثير.

ونود فى هذا الصدد أن نشير مجرد إشارات عابرة إلى بعض النماذج من هذه القيم المنسية على سبيل التذكرة بها ومن هذ القيم:

١ - قيمة التفكير:

وهى من القيم التي حث عليها القرآن الكريم، وأشار إليها فى صيغ عديدة دليلاً على أهميتها، وما تؤدى إليه من إبداع فى شتى أنواع العلوم والفنون والصنائع. ولكننا بنظم التعليم لدينا قد نجحنا فى تعليم أبنائنا الخوف من التفكير، وقمنا بصبهم جميعاً فى قالب واحد يربطهم بحرفية المكتوب، وأغلقنا أمامهم فرص الإبداع والانطلاق. وأصبح الفكر لدينا فى اللسان الشعبى أمراً مرادفاً للغم والهم حيث لا تجد الأم التى تحنو على أبنائها دعوة أفضل من أن تدعو الله أن يبعد عنهم الفكر.

ونحن مطالبون بأن نفكر، وأن يقض التفكير مضاجعنا ويقلقنا فى سبيل البحث عن مخرج لنا من أزمتنا الطاحنة.

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى غرس قيمة التفكير فـي نفوس أبنائنا وبناتنا. فإذا تعلم شبابنا التفكير وأحسنوا استخدامه فلن يكون هناك مجال للتطرف فـي الفكر أو فـي فـهم الديـن، ولـن يستطيع أحد عندئذ خداعهم بشعارات زائفة لا يقصد من ورائها إلا وضع العقبات أمام التفكير والغاء العقل بالكليـة حتـى يسير الشباب معطل الفكر مشلول العقل نحـو ما يريـده هـؤلاء الذيـن لا يريدون لأمتنا خيراً.

وقد اهتم القرآن الكريم بقيمة التفكير اهتماماً كبيراً، وجعل الكـون كلـه بسمائه وأرضـه ومـا بينـهما مجـالاً واسـعاً للتفكـير الإنسانى. ويتضح لنا ذلك بجـلاء عندمـا نقـرأ الأيـة الكريمـة التى سبقت الاشارة إليها ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فـى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[1].

ومما لاشك فيه أن تمكـين العقـل مـن أداء دوره كـاملاً كفيـل بوضع حد لكل شكل من أشكال التطرف وكفيل أيضـاً بتجفيـف منابع التطرف. وفي المقابل نجد أن الغاء دور العقل من شأنه أن يفسح المجال واسعاً أمام هجمة التطرف الشرسة ومـا يتبـع هـذا التطرف من تعصب وعنف وإرهاب.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣. انظر أيضاً التعليق على هذه الآيـة فـى الفصـل السابق.

إن دعوة القرآن للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل. وهكذا يجعل الإسلام التفكير واجباً مقرراً وفريضة إسلامية. ومن هنا قرر ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها، وذلك أخذاً من آيات القرآن العديدة فى هذا الشأن.

٢ - قيمة العمل:

يرتبط العمل فى القرآن الكريم بالإيمان، ويرتبط بقيمة أخرى هى قيمة إتقان العمل واستمراريته، حتى ولو قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل كما يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -[1]، ويرتبط بقيمة العمل قيمة الوقت، وأسلافنا كانوا يقولون الوقت كالسيف إن لم تقطعه تقطعك، وكانوا يقولون أيضا: الوقت من ذهب، ولكن هذه القيمة قد تحولت على أيدينا إلى شيء أرخص من التراب، وتفيد بعض التقارير أن متوسط عمل العامل فى بلادنا لا يتجاوز نصف ساعة فى اليوم، وقد نسينا أن الله سبحانه قد أقسم بالعصر، وبالفجر، وبالضحى، وبالليل، وبالنهار، وهى تمثل أجزاء من

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ طبعة اسطنبول بعنوان: الكتب الستة مجلد ٢٢.

الوقت دليلا على أهمية هذه القيمة، وليلفت أنظارنا إليها، ويوجهنا لاستغلال أوقاتنا الاستغلال الأمثل، فنحن مسئولون يوم القيامة عما صنعنا بأوقاتنا.

٣ – قيمة النظافة:

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى الحديث الشريف القائل: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[١]، فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم إماطة الأذى عن الطريق جزءا لا يتجزأ من الإيمان، ولو حقق المسلمون هذا الجزء من الحديث النبوى لكانت شوارع المسلمين فى قراهم ومدنهم أنظف الأماكن فى الدنيا كلها.

٤ – قيمة مراعاة شعور الغير:

وهنا نشير أيضاً إلى هذا التعليم النبوى الرائع فى قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه**»[٢].

---

(١) رواه الإمام مسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائى (فيض القدير ج ٣ ص ١٨٥) بيروت – دار المعرفة

(٢) رواه البخارى ومسلم (فيض القدير ج ١ ص ٤٣٥).

٥ – قيمة النظام:

لقد أصبحت حياتنا خليطاً عجيباً من الفوضى على المستوى الفكرى والدينى والعلمى والحياتى فى حين أن تعاليم الإسلام فى الصلاة وفى الجهاد – على سبيل المثال – قد أعطت لنا مثالاً رائعاً فى النظام.

٦ – قيمة الجمال:

الإسلام دين الجمال يكره القبح وينفر المسلمين منه، وتعاليم الإسلام كلها تحث على الجمال فى كل شىء، والحديث الشريف الصحيح يقول: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[1]، والمسلم مأمور بأن يأخذ زينته عند كل مسجد، وكما يكون الجمال مادياً كما نراه فى الأجسام والأشياء من حولنا يكون أيضاً جمالاً معنوياً يتمثل فى الأخلاق الجميلة والصفات النبيلة.

والكون بما فيه من تناسق وإحكام أعظم مثال على الجمال الإلهى فى هذا الوجود، وأوصاف الجنة فى القرآن الكريم تعد لوحات فنية رائعة الجمال.

إننا نفترى على الإسلام إذ نجعل منه ديناً ينفر من الجمال ويدعو إلى الكآبة والتجهم.

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحة ٨٩/٢ بيروت ١٩٧٢م – دار إحياء التراث العربى

إننا نظلم الإسلام حين نجعل منه دينا عدوا للعواطف والوجدانيات، وعدوا للتعبير الجمالى عن هذه العواطف بقصيدة جميلة، أو أغنية ذات كلمات عفيفة، أو لحن موسيقى يرقق المشاعر، أو رسم جميل يبرز آيات الله فى الكون.

لماذا ننسى أن أبا بكر - رضى الله عنه - قد دخل على عائشة فى يوم عيد فوجد عندها جاريتين تغنيان فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان فى بيت النبى - صلى الله عليه وسلم فقال لنبى الكريم: «**يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا**»[1].

ولماذا ننسى أيضا ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها زفت جارية يتيمة كانت فى حجرها لرجل من الأنصار، فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء، فقال يا عائشة: «**ألا بعثت معها من يغنى فإن الأنصار قوم يحبون الغناء، فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم**»[2].

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ج ١ ص ٦١٢ طبعة عيسى الحلبى.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٣٩١ طبعة بيروت.

تلك كانت بعض الإشارات العابرة من تعاليم الإسلام فى مجال القيم الحضارية. وما أكثرها، وهذا مجال واسع يطول شرحه[1].

(د) نحو حضارة إسلامية معاصرة:

والسؤال الآن هو: إذا كان هذا موقف الإسلام من الحضارة فما بال لمسلمين قد تخلوا عن ركب الحضارة، وارتضوا لأنفسهم منذ قرون أن يكونوا فى مؤخرة الركب لا يشاركون فى صنع الحضارة. وإن كانوا يستخدمون منتجاتها؟ إن الحضارة المعاصرة إن باعتنا منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها، وكل المعانى التى لا تلمسها الأنامل. فعملية التحضر عملية منبعثة من الداخل أساساً، وهذا يعنى أن هناك شيئاً ذاتياً أساسياً يجب أن يقود عملية التحضر. ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة، ولكنه لا يسلك سلوكاً حضارياً. ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر، رغم الأكوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة، ومن هنا فعدم مشاركة المسلمين فى صنع الحضارة يعنى أنهم قد تخلوا

---

(١) وليقرأ من يريد كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين للإمام الكبير ابن القيم، وكتاب طوق الحمامة للإمام ابن حزم فقد احتفل كل منهما بقيمة الجمال احتفالا لاحد له ووصفا ما لها من آثار عميقة فى النفس البشرية.

عن مسئوليتهم فى عمارة الأرض وتركوها لغيرهم وهى تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم.

فماذا يريد المسلمون؟

هل ينتظر المسلمون انهيار الحضارة المعاصرة حتى يقيموا حضارتهم على أنقاضها؟ إذا كان الأمر كذلك فسيطول بهم الانتظار.

أم يرى المسلمون أن واجبهم فى المشاركة فى صنع الحضارة المعاصرة يتمثل فى الاهتمام بالجانب الروحى الذى أهملته الحضارة الحديثة حتى يقيم المسلمون بذلك التوازن الذى اختل فى الحضارة الحديثة؟

إن هذه مهمة جزئية ليست هى ما يريده الإسلام من أبنائه، فالإسلام لا يفصل الجانب المادى عن الجانب الروحى، والنموذج الذى ينبغى أن نسعى إليه ونقدمه لأمتنا ولغيرنا لابد أن يكون جامعاً للأمرين، وإلا كنا خائنين لرسالتنا نرتضى لأنفسنا أن نكون لقمة سائغة فى فم القوى العظمى. إننا فى عالم اليوم فى عصر لم يعد يعترف إلا بالقوة. وقوة اليوم لم تعد هى قوة السلاح فقط أو قوة الإيمان فقط، وإنما هى القوة التى تجمع بين الأمرين، وهذا هو جوهر تعاليم الإسلام.

فلا يجوز لنا إذن أن نتخلى عن فريضة العلم، وما يرتبط به من تقنية بجوار قيامنا بفرائض الروح والقلب.

ومن هنا فإنه لا مناص لنا من أن نتمكن من حضارة العصر بكل منجزاتها المادية، وتطوراتها العلمية والتقنية، فى الوقت الذى نراجع فيه موقفنا من الإسلام وتعاليمه، لنزيل الغبش الذى غطى على تعاليم الإسلام فحجب عنا الرؤية السليمة الواضحة لهذه التعاليم على مدى القرون الماضية، وهذا يتطلب تحولاً جذرياً فى العقلية الإسلامية لتنسجم مع تعاليم الإسلام تصحيحا للأوضاع الغريبة، والتقاليد البالية، والقصور العقلى، والفهم السقيم الذى أراد أن يشد تعاليم الإسلام لتنسجم مع ما درجنا عليه من عقلية متخلفة، فالعيب إذن فينا نحن المسلمين وليس فى الإسلام. فالإسلام سيظل شامخاً بتعاليمه، إذا اشرأبت أعناق المسلمين وقلوبهم وعقولهم نحوه بصدق جذبهم إلى أعلى، وإذا أرادوا أن يخضعوه إلى فهمهم السقيم تخلى عنهم، وتركهم يسقطون فى وهدة التخلف.

إن الأمر الذى يدعو للأسى والحسرة أننا كلما أدركنا ما نعانيه من قصور وعجز وتخلف فى المجال الحضارى فى عالم اليوم لجأنا إلى حيلة دفاعية نبرر بها موقفنا فنخدع أنفسنا بأنه إذا كان قد فاتنا اللحاق بركب الحضارة الحديثة المؤسسة

على العلم والصناعة فإننا ننعم بإيمان ديني لا ينعم بمثله بناة تلك الحضارة.

وهذا ادعاء ينقض نفسه بنفسه، لأننا لو كنا حقاً قد تشربنا الدين الذى نؤمن به لوجب علينا بحكم هذا الدين نفسه أن نسبق الدنيا فى إقامة الحضارة القائمة على كشوف العلم وما ينبنى عليها، لأن الإسلام دين يحض على العلم بأى معنى تفهمنا كلمة «علم»، فإذا كان العلم الذى بنيت عليه حضارة عصرنا هو - أساساً - العلم بقوانين الطبيعة، فذلك ما دعانا إليه القرآن الكريم كلما دعانا إلى تدبر خلق الله، فخلق الله هو هذا الكون بشتى كائناته وظواهره، وتدبر هذه الكائنات والظواهر لا يعنى النظر إليها نظرة المتفرج، بل يعنى تعمقها والوصول إلى درجة العلم بالأسس التى تحكم سلوكها والقوانين التى تنظم مسيرتها، وذلك من صميم النشاط العلمى وما ينطوى عليه.

فإذا أمرنا القرآن الكريم بأن ننظر إلى الإبل كيف خلقت أو إلى السحب كيف تتجمع لتنزل ماءها إلى أرضنا فتحييها بما تنبته من نبات، فإن الهدف من ذلك ينتهى بنا إلى درجة العلم بالحيوان أو العلم بالنبات. وينطبق ذلك على كل كائن أو ظاهرة مما يجب علينا بحكم الدين أن نتناوله بالنظر[1]، ولكننا للأسف

---

(١) انظر: د. زكى نجيب محمود صحيفة الأهرام ٩٠/٦/٥.

لا نفعل شيئاً من ذلك، ونعتقد أن مجرد قراءة القرآن وحفظه يكفيان لاكتمال إيماننا بالدين، فأين ذلك من قول الله تعالى: **﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾**[1]. إن كثيراً من آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الظواهر الكونية والكائنات المختلفة تنتهى بالدعوة إلى حث القوى الفكرية لدى الإنسان لتقوم بأداء وظيفتها فى هذا الصدد ممثلا ذلك فى قائمة الأفعال التى تعبر عن التفكير والتعقل والتفقه والاعتبار والتدبر والتبصر والتذكر والعلم وغيرها من أفعال مشابهة.

لقد ركزت الصحوة الإسلامية على أمور العبادات وهذا أمر مطلوب، واهتمت بالكثير من المظاهر والشكليات، وهذا من قبيل الهزل فى وقت الجد.

إن المسألة الملحة اليوم هى البحث عن مخرج للمسلمين من وهدة التخلف الشامل، وذلك لن يكون إلا باستعادة الوعى بالإسلام.

والصحوة الإسلامية تظل مجرد كلمة خالية من المضمون طالما لم تصل إلى مرحلة عودة الوعى بالإسلام، وعودة الوعى هى الحالة التى يمكن أن تكون المنطلق الحقيقى للفهم الشامل

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤

الإسلام بوصفه دين العزة والكرامة، دين التقدم والحضارة، دين العلم والمدنية، دين الدنيا والآخرة، دين التوازن بين الجسم والروح، دين الاعتدال والسماحة، دين السمو المادى والمعنوى، بصفة عامة دين السلوك المسئول على جميع المستويات الفردية والاجتماعية والدينية. والسلوك المسئول هو دائماً سلوك حضارى، والتعاليم التى تنتج هذا السلوك المسئول هى التعاليم التى تدفع معتنقيها إلى صنع الحضارة والمشاركة فيها، لا بوصفهم مجرد مستهلكين أو متفرجين، ولكن بوصفهم فاعلين ومؤثرين.

والتعاليم التى تستطيع أن تصنع ذلك كله هى تعاليم الإسلام.

إن ديناً بهذا الوصف لا يمكن أن يجعل أمر الحضارة من المسائل الهامشية ضمن اهتماماته، وإنما يجعلها فى قائمة أولوياته، وهذا ما فهمه المسلمون فى السابق، وبذلك استطاعوا فى فترة زمنية قصيرة أن يقيموا أعظم حضارة فى التاريخ، ومن هنا يمكننا مرة أخرى أن نقرر أن الحضارة فريضة إسلامية، وواجب دينى لا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنه، بل عليهم أن يجعلوه فى قمة أولوياتهم حتى يعودوا مرة أخرى أعزة، ويستعيدوا مكانهم الريادى ومكانتهم العليا فى عالم اليوم.